البُرْهان في إِعْجازِ القُرآن

أو

بديع القرآن

ابن ابي الإصبع المصري

٥٨٥ ـ ٦٥٤هـ

تحقيق

الدكتور أحمد مطلوب الدكتورة خديجة الحديثي

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

(١)

بدأت بذور البحث البلاغي في العراق ، وكانت البصرة والكوفة مركزي إشعاع لغوي وحضاري قبل ان تؤسس بغداد وتصبح حـاضرة العالمين : العربي والإسلامي ، وموطن العلم ، وقبلة العلماء .

وقد اسهم في تطور البلاغة علماء كثيرون من مشارق العالم الإسـلامي ومغاربه ، واتضحت فيها مناهج او اتجاهات تعبر عن ثقافة المؤلـف وهدفه في البحث البلاغي ، ويمكن أن يتلمّس ذلك في جهود :

أولا : الذين عنوا بإعجاز القرآن الكريم كابي عبد الله بن محمد بن يزيد الواسطي (- ٣٠٦ هـ) ، وأبي الحسن علي بـن عيسـى الرمـاني (- ٣٨٦ هـ) ، وأبي سليمـان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطـابي (- ٣٨٨ هـ) ، وأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (- ٤٠٣ هـ) والقاضي أبي الحسن عبد الجبار الاسدآبادي (- ٤١٥ هـ) .

ثانياً : المفسرين الذين عنوا بلغة كتاب الله العزيز ومعانيـه وبلاغتـه كابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبـة (- ٢٧٦ هـ) ، وجـار الله محمود بن عمر الزمخشري (- ٥٢٨ هـ) .

ثالثـاً : الأصوليين والفقهاء كالإمـام محمد بـن إدريـس الشـافعي (- ٢٠٤هـ) ، وأبي الحسين محمد بن علي بـن الطيـب البصـري المعتزلي (- ٤٣٦ هـ) ، والإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالـي (- ٥٠٥ هـ) ، وأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الآمـدي (- ٦٣١ هـ) وعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (- ٦٦٠ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

(١)

بدأت بذور البحث البلاغي في العراق ، وكانت البصرة والكوفة مركزي إشعاع لغوي وحضاري قبل ان تؤسس بغداد وتصبح حـاضرة العالمين : العربي والإسلامي ، وموطن العلم ، وقبلة العلماء .

وقد اسهم في تطور البلاغة علماء كثيرون من مشارق العالم الإسـلامي ومغاربه ، واتضحت فيها مناهج او اتجاهات تعبر عن ثقافة المؤلـف وهدفه في البحث البلاغي ، ويمكن أن يتلمّس ذلك في جهود :

أولا : الذين عنوا بإعجاز القرآن الكريم كابي عبد الله بن محمد بن يزيد الواسطي (- ٣٠٦ هـ) ، وأبي الحسن علي بـن عيسـى الرمـاني (- ٣٨٦ هـ) ، وأبي سليمـان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطـابي (- ٣٨٨ هـ) ، وأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (- ٤٠٣ هـ) والقاضي أبي الحسن عبد الجبار الاسدآبادي (- ٤١٥ هـ) .

ثانياً : المفسرين الذين عنوا بلغة كتاب الله العزيز ومعانيـه وبلاغتـه كابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبـة (- ٢٧٦ هـ) ، وجـار الله محمود بن عمر الزمخشري (- ٥٢٨ هـ) .

ثالثـاً : الأصوليين والفقهاء كالإمـام محمد بـن إدريـس الشـافعي (- ٢٠٤هـ) ، وأبي الحسين محمد بن علي بـن الطيـب البصـري المعتزلي (- ٤٣٦ هـ) ، والإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالـي (- ٥٠٥ هـ) ، وأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الآمـدي (- ٦٣١ هـ) وعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (- ٦٦٠ هـ)

وشمس الدين أبي عبد الله محمد المعروف بابن قيم الجوزية (- ٥٧١ هـ) .

رابعاً : اللغويين كابي عبيدة معمر بن المثنى (- ٢٠٨ هـ) ، وأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (- ٢١٦ هـ) ، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (- ٢٨٥ هـ) ، وأبي الحسين احمد بن فارس (- ٣٩٥ هـ) .

خامساً : النحاة كابي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (- ١٨٠ هـ) ، وأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (- ٢٠٧ هـ) ، وأبي العباس احمد بن يحيى المعروف بثعلب (- ٢٩١ هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (- ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) ، وكمال الدين عبد الواحد ابن عبد الكريم المعروف بابن الزملكاني (- ٦٥١ هـ) .

سادساً : الشعراء كعبد الله بن المعتز (- ٢٩٦ هـ) ، وأبي الحسن محمد بن أبي الحسين الشريف الرضي (- ٤٠٦ هـ) ، وأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (- ٤٦٣ هـ) ، وأبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني (- ٤٦٠ هـ) ، وأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (- ٤٦٦ هـ) ، وأبي المظفر أسامة ابن منقذ (- ٥٨٤ هـ) ، وأبي محمد زكي الدين عبد العظيم المعروف بابن أبي الإصبع العدواني المصري (- ٦٥٤ هـ) .

سابعاً : الكتاب كابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (- ٢٥٥ هـ) ، وأبي الفرج قدامة بن جعفر (- ٣٣٧ هـ) ، ومعاصره ابي الحسين اسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، وأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (- ٣٩٥ هـ) ، وأبي القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقيا البغدادي (- ٤٨٥ هـ) ، وابن شيث

القرشي (– ٦٢٥ هـ) ، وضياء الدين بن الأثير (– ٦٣٧ هـ) ، ومحمود بن الحسين الركن السنجاري (– ٦٥٠ هـ) ، وابن أبي الحديد (– ٦٥٥هـ) ، وشهاب الدين محمود الحلبي (– ٧٢٥ هـ) ، وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (– ٧٦٥ هـ) .

ثامناً : النقاد كابن طباطبا العلوي (– ٣٢٢ هـ) ، وأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (– ٣٧١ هـ) ، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (– ٣٩٢ هـ) .

تاسعاً : الفلاسفة والمتكلمين كفخر الدين الرازي (– ٦٠٦ هـ) ، وسراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي (– ٦٢٦ هـ) ، وأبي الحسن حازم القرطاجني (– ٦٨٤ هـ) ، وابي عبد الله محمد بن عمرو التنوخي أحد أعيان المائة السابعة للهجرة ، ويحيى بن حمزة العلوي (– ٧٤٩ هـ) .

عاشراً : الملخصين والشراح كبدر الدين بن مالك (– ٦٨٦ هـ) ، وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (– ٧٣٩ هـ) وبهاء الدين السبكي (– ٧٧٣ هـ) ، وسعد الدين مسعود بن عمر المشهور بالتفتازاني (– ٧٩٢ هـ) ، وعلي بن محمد الجرجاني المعروف بالسيد الشريف (– ٨١٦ هـ) ، وإبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الاسفراييني (– ٩٥١ هـ) ، وجلال الدين السيوطي (– ٩١١ هـ) .

حادي عشر : أصحاب البديعيات كصفي الدين الحلي (– ٧٥٠ هـ) وابن جابر الأندلسي (– ٧٨٠ هـ) ، وعز الدين الموصلي (– ٧٨٩ هـ) ، وأبي بكر بن حجة الحموي (– ٨٣٧ هـ) وجلال الدين السيوطي (– ٩١١ هـ) ، وعائشة الباعونية (– ٩٢٢ هـ)

وصدر الدين بن معصوم المدني (- ١١١٧ هـ) ، وعبد الغني النابلسي (- ١١٤٣ هـ) .

وقد اتضح من دراسة هذه الجهود ان البلاغة العربية اتجهت منذ عهد مبكر اتجاهين : اتجاها أدبيا واتجاها عقليا ، وهو ما أشار إليه أبو هلال العسكري حينما قال في (كتاب الصناعتين) : ((وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب)) ، وجلال الدين السيوطي ، إذ قال : ((ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم واهل الفلسفة)) وكان الآمدي قد أَلْمحَ من قبل الى اتجاهين في تذوق الشعر ونقده حين قال في مقدمة كتابه (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) : إنَّ من النقاد من يميل نحو الذوق والفن وهم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون واهل البلاغة ومنهم من يميل الى ذوق المتكلمين وهم أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق وفلسفي الكلام .

وسمى أمين الخولي هذين الاتجاهين : المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية ، وَحدَّدَ هو ومن تبعه خصائص هاتين المدرستين .

(٢)

هذا ما كان من أمر البلاغة العربية ، فما حظها في مصر ؟

لم تكن مصر بعيدة عن الإشعاع الحضاري الذي عمَّ نوره أقاليم العالم العربي والإسلامي ، وظهر فيها علماء وكتاب وشعراء كان لهم اثر كبير في ازدهار علوم اللغة العربية ، ووضع المؤلفات فيها . ومنها البلاغة التي كانت مهمة لأنها تتصل بفهم القرآن الكريم والوقوف على

إعجازه البياني ، وتذوق الشعر والحكم عليه ، ورسم طريق صنـــاعتي الشعر والنثر .

اطلع علماء مصر على ما في المشرق مـــن كتـــب بلاغيـــة ، وكانت الأولى منها اكثر اثرا في اتجاه البلاغـــة واهتمامـــها بـــالذوق والجانب الفني من اهتمامها بالمنطق وعلم الكلام في تصنيف البلاغـة . وقد ارجع بهاء الدين السبكي ذلك الى ما لأَهلُ مصر مـــن ذوق فنـــي وإحساس روحاني وهبته لهم الطبيعة ، قال في مقدمة كتابه (عـــروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) : ((أما أَهلُ بلادنا فهم مســـتغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التي هي ارق من النسيم ، والطف من ماء الحياة في المحيـــا الوسيم . اكسبهم النيل تلك الحلاوة ، واشار إليهم بإصبعـــه فظـــهرت عليهم هذه الطلاوة . فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ــ فضلاً عن الاغمار ــ الأعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجـــب من الأسرار خلف الأستار :

والسَّيْفُ ما لم يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ مِنْ طبعه لم يَنتفَع بصقال

فيالها غنيمة لم يوجف عليها من خيل ولا ركاب ، ولم يزحـــف اليـــها بعدو عدية ، ولا بلحاق لاحق وانسكاب سكاب ، فلذلك صرفوا همـــهم الى العلوم التـــي هي نتيجة أو مادة لعلم البيان ، كاللغـــة ، والنحـــو ، والفقه ، والحديث وتفسير القرآن .

وأَمّا أهل بلاد المشرق الذين لهم اليـــد الطولـــى فـــي العلـــوم ــ ولاسيما العلوم العقلية والمنطق ــ فاستوفوا هممهم الشـــامخة فـــي تحصيله ، واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هـــذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم)) .

وهذا وصف دقيق لما كان في مصر من اتجاه بلاغي ، ولكنه لم يبق إذ ورد إليها من المشرق (مفتاح العلوم) للسكاكي فعكف عدد من المؤلفين على تلخيصه وشرحه ولعل بدر الدين بن مالك من أوائل الذين لخصوا القسم الثالث منه باسم (المصباح) ثم تلاه آخرون منهم الخطيب القزويني بكتابه (تلخيص المفتاح) الذي نال شهرة واسعة وشرحه القزويني نفسه بكتابه (الإيضاح) وبهاء الدين السبكي بكتابه (عروس الأفراح) وسعد الدين التفتازاني بكتابيه : المختصر والمطول ، ثم المولى عصام الاسفراييني في شرحه الأطول ، وبذلك أخذت البلاغة تتجه اتجاهاً مشرقياً يعتمد على التعريف الجامع المانع ، والتقسيم الدقيق ، والاهتمام بالجانب المنطقي اكثر من الاهتمام بالذوق الفني والإحساس الروحاني .

كانت ملاحظة السبكي منطلقا للبحث في البلاغة بمصر ، ولعل أمين الخولي أول من عني بذلك ، إذ ألقى في السابع من آذار سنة ١٩٣٤ في (الجمعية الجغرافية الملكية) في القاهرة محاضرة بعنوان ((مصر في تاريخ البلاغة)) تعرض فيها للبيئة المصرية الطبيعية والاجتماعية ، والبيئة المصرية والبلاغة ، والمدرستين البلاغيتين ، والمدرسة الأدبية في مصر ، واتصال المدرسة الفلسفية في مصر وآثارها ، وتوجيه مصر الجديد للمدرسة الفلسفية . وقرر ان هناك مدرسة ذات خصائص تتجلى في أهم كتبها وهو (عروس الأفراح) لبهاء الدين السبكي (- ٧٣٩ هـ) .

كانت دعوة أمين الخولي الى مدرسة مصر البلاغية حافزا دفع الباحثين والمحققين الى الاهتمام بكتب البلاغة المصرية وتحقيقها وإصدار بحوث ودراسات عنها ، ولعل أوسع دراسة ظهرت في هذا